الفصل الثالث

أبو نواس

مقدمة :

كان جيل بشار لم يَمُتْ بَعْدُ كلّه حين دفعت الحياةُ إلى الوجود أبا نواس، فلما وعَى رأى ابن يسير والسدرىّ والجمّاز وعبد الصمد بن المعذل وأسود ابن أبى كريمة — وكلهم بصريون — يعيشون كما يريد هو أن يعيش. فاتصل بهم، كما اتصل بطليعة شاعرة كانت فى مثل سِنه منها الفضل الرقاشىّ وأحمد الخاركى والحسين الخليع. وأخرى تأخذ بالكلام والكتابة كالجاحظ والنظام ومويس بن عمران!

وباستثناء الجاحظ ومويس بن عمران، لا نستطيع أن نجد بين هؤلاء واحداً لا تأخذه الظنّةُ، بل إن ابنَ عمران نفسَه الذى أحبّ أبا نواس وأعجب به الجاحظ أيما إعجاب، والذى تردّد بين أن يكون خارجيًّا ومرجئًا ومعتزليًّا. هذا الرجل كان متهمًا بما اتُّهم به الموالى.

ومما يلفت أيضًا أن أحداً منهم لم يُسْهِمْ فى تطوير الأدب — والشعر بخاصة — إلا وقد صدر عن صَبَأ أو زندقة؛ فابن أبى كريمة[1] مثلاً وهو ينشد على طريقة البدو فيروع. ويصف كلاب الصيد والفهود فيصيب، يُقْدِم على الخمر ويصفها، ويأخذ بحياة الفرس فيظهر ذلك فى شعره ظهوراً واضحًا ويلونه لوناً يخالف به الأولين.

---

(١) يختلف فى اسمه كثيراً؛ فالجاحظ يذكر واحداً باسم أسود وآخر باسم أحمد بن زياد، وأبو على القالى يلقبه بأبى كريمة، وثمة آخرون يجمعون على أسود بن أبى كريمة وهكذا. وقد يمكن أن يكون هناك أكثر من شاعر باسم مشترك لولا أن ما يروى من نماذج الشعر ينم عن أن القائل واحد. راجع الحيوان ٢ : ٣٦٧ وما بعدها، البيان والتبيين ١ : ١٠٩ (سندوبى)، ذيل الأمالى ٧٢، البخلاء ٥٩ (الحاجرى).

وابن يسير رأيناه مرة متألهًا متنسكا ومرة أخرى متهتكًا ماجنًا ، يتحدث عن العلم فى شعره كأحسن ما يكون التحدّث ، ثم يخوض فى الخلاعة[١] كما خاضها من قبل حارثة بن بدر ، ومن بعد أبو نواس !

والجمّاز محمد بن عمرو الذى كان من أسرة سلم الخاسر وكان يكثر من التردد على أبى عبيدة ويأخذ العلم عنه ، لم يَرْبَأ بنفسه عن مصاحبة المتهمين فى دينهم ، وعرف بسلاطة اللسان وإقذاعه فى الهَجْو .

وهكذا ، فإن أتى أبو نواس — وكان فيه ذكاء — أخذ من الجميع ما أخذوه من البصرة ، وتفتحت بصيرته على ثراء ثَرّ من المعرفة الواثقة ، وتشرّب شتى الآراء ، وأسهم فى حركة الشعوبية بما لم يسهم به أحد !

هذا هو أبو نواس الشاعر الذى أحبه الخاصة والعامة جميعًا .

أبو نواس الشاعر الذى أصبح أسطورة ، وتحوّلت شخصيته المرحة إلى نوادر تُحكى ، وتتداولها مجالسُ الشراب واللذة والهزل .

أبو نواس الذى ضاقت البصرة عن طاقته فهجرها إلى بغداد ، ثم تقلبه بين الأمصار الإسلامية يملؤها غناء وعبثًا ، وظل حتى مات بصريًّا[٢] .

نشأته :

كان الحسنُ بن هانئ ، مولى الحكم بن سعد العشيرة الذى ينتمى إلى كهلان ابن سبأ ؛ فهو يمنى ولاءً إذن[٣] ، وكأنه وقد رأينا ابن المقفع من تميم وبشاراً من ربيعة يضع باسم القطاع السكانى اليمانى لبناتٍ فى نهضة البصرة الأدبية .

---

(١) الحيوان ١ : ٥٩ ، الأغانى ١٢ : ١٢٤ وما بعدها

(٢) هذا بإجماع الآراء وخير من ترجم له من القدماء ابن قتيبة فى الشعر والشعراء (٧٧٠ وما بعدها) وحدد بوضوح شخصيته وفنه ؛ فهو بصرى مطبوع متفنن فى العلم ، ند لشعراء عصره ، يحسن التصوير ويكفر فى شعره ، وقد يخطىء فى اللغة ، وقد يقول فى الزهد كما يقول فى المجون .

(٣) جمهرة الأنساب لابن حزم ٣٨٤

ويبدو من دراسة أشعار الشاعر أنها ناقصة ، ولكنها تدل على أنّ منها ما قيل فى البصرة قبل أن يبرحها ، وليس لها تاريخ يحدد سنوات الشاعر فى هذا المصر ، غير أن حمزة الأصفهانى — أحد جامعى ديوانه — يؤكد أن أبا نواس لم يرد بغداد إلا وسِنه زادت على الثلاثين ، ولم يلحق بها أحداً من الخلفاء قبل الرشيد (١) .

ومعنى ذلك أن ميلاد الشاعر كان حول سنة ١٤٠ للهجرة أو قبلها قليلاً لأن الرشيد ولى الخلافة سنة ١٧٠ على وجه التحقيق . وتدل حصيلة الدراسات التى قدمها المجتهدون — وهم كثيرون — على أن الشاعر عاش طفولته لا كما يعيشها أبناء الموالى ؛ فقد عرف بالخفة وسرعة الجواب ولباقة الحديث والتثنى إذا ضرب فى طرقات البصرة متنقلاً بين دكان العطار الذى يشتغل فيه ، وبيته الحقير ، والمساجد التى عمرت بها المدينة .

وترامى إلى أبى نواس الكثيرُ من أنباء والبة بن الحباب الشاعر الكوفى ، وودّ لو اتصل به وتعرّف عليه كما يقول ابن خلكان (٢) ، ويؤكد ابن منظور أن الشاعر الصغير لم يطق صبراً فسعى إلى والبة وقدّم إليه نفسه (٣) .. لا أستطيع أن أقطع بصحة هذه القالة ولا بقالة ابن خلكان ، غير أنهما تخططان لما عرف عن الشاعر من انحراف !

وخلفية الشاعر خصبة ؛ فقد عكف على قراءة القرآن ودراسة اللغة ثم عالج « كتاب » سيبويه ، وتخرج فى الحديث على أكبر شيوخ البصرة ، ولزم أبا محرز خلفاً الأحمر وفدر به على الشعر . كذلك طرق مجالس أبى عبيدة وأبى حاتم السجستانى والأصمعى فعرف — من ثَمّ — أخبار العرب وأشعارهم ونوادرهم ، وأحاط فى الوقت نفسه بأخبار العجم وعرف الفارسية وتعلم الكلام والنجوم ، وقيل

---

(١) راجع مقدمة ديوان الشاعر طبعة إسكندر آصاف سنة ١٨٩٨

(٢) وفيات الأعيان ٤ : ١٩٣

(٣) أخبار أبى نواس (ط . القاهرة ٢٩٢٤)

كان له « نظر فى علم الطبائع » [١] .

ومعنى ذلك أن قدوم الشاعر إلى بغداد كان وهو شخصية كبيرة تسامع بها البغداديون ، وأحاطوا بكل ما أثير حولها من لغط ..

وإذا صح أن تركه للبصرة كان نتيجة لإخفاقه فى حبه جنان — ولأبى نواس شعر فى زهد المرأة — فإننا نستطيع أن نفسر على ضوء هذا الإخفاق ما قاله فى البصرة وأهلها من هجاء ، من ذلك قوله على ما يروى ابن قتيبة [٢]:

ألا كلُّ بصريٍّ يرى أنَّمَا العُلا
مُكَمَّمَةٌ سُحْقٌ لهُنَّ جَرينُ
وإن أكُ بَصْرِيًّا فإنَّ مُهَاجِرِى
دمشقُ ، ولكنَّ الحديثَ شجونُ

وقوله :

أيا مَنْ كنتُ بالبصْرَ ـ ـة أصْفى لهُمُ الوُدّا
شَرِبنا ماء بغدادَ فأنساناكمُ جِدّا
فلا تَرْعَوْا لنا عهدا فما نرعَى لكمْ عهدا
جِدوا مِنَّا كما أنَّا وجَدْنا منكمُ بُدّا

ويخيل لى أن مبالغة أبى نواس فى انحرافه معلنًا عنه متغنيًا به ، قد يفسره هذا الإخفاق ومثله . لا سيما إذا عرفنا أن الشاعر تعرّض من ناحية أخرى لعبث جارية تدعى عنان ، وأن هذه الجارية أغْرَتْ صبيان البصرة به فكانوا يعدون وراءه ويصيحون :

أبو نواس اليمانى وأمه جلبان

---

(١) الشعر والشعراء ٧٧٣ وطبقات ابن المعتز ٢٠٧

(٢) البيتان وما بعدهما فى الشعر والشعراء ٧٧٢ والمكمة : النخلة ذات الأكمام ، سحق النخل الطويل الذى يبعد ثمره على المجتنى ، جرين : موضع التمر الذى يجفف فيه .

والنغـــل أفطن شيء إلى حروف المعـــانى [١]

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن المعتز ينفى عنه تهمة اللواط كما ذكر فى كتابه طبقات الشعراء[٢]. وأن غلاميات الشاعر لم تكثر إلا فى عهد الأمين لشذوذه[٣] فكأنما هى تبرير له ؛ وأن الولع بالغلمان ظاهرة فارسية على الحقيقة . . إذا فعلنا ذلك ظهر انحرافُ أبى نواس مجرَّدَ ظاهرة فنيةٍ !

المهم أن الشاعر كان أشدّ إيلامًا على نفسه من شائعات الناس . وانطلق فى بغداد يائسًا أو كاليائس وراء أهوائه . وصاحب المخنثين وتردّد على الحانات مع « أهل الصبوة » و « عصبة المجان » التى كان منها مسلم بن الوليد والخليع ومطيع بن إياس وأبان اللاحقى والفضل الرقاشى[٤].

وتدل الأخبار على أن أبا نواس لم يمكث طويلا ببغداد . إذ لم يلبث أن رحل إلى مصر ونزل نديمًا للخصيب ، ثم رجع ولا يزال الرشيد على العرش فأهدر دمه لسوء خلقه ، ولكن الأمين يتوسط له حتى يحفظ سجلَّاتُه حياته له . ولم يكد الأمين يصل إلى كرسى الخلافة حتى يظفر الشاعر بكل ما يرجو ، فاطمأنت حياته واستمتع بحرية مطلقة ، حتى لقد سمح له أن يقول علانية ما يريد فى الخمر والمجون ، بل فى التعريض بالعرب أحيانًا !

من أجل ذلك وجد خصوم الأمين فى الأمين أكثر من مطعن . فاضطر أن يقصى الشاعر عنه ، ولكنه لم يقصه عن شره حتى مات ، فيقوم برثائه مع من رثاه كالحسين الخليع ، وفى عام ١٩٩ يلحق به ويدفن فى مقبرة الصالحين بالجانب الغربى من بغداد .

---

(١) النغل : ولد الزانية لفساد نسبه ، ويقصد به أبونواس

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٠٨

(٣) بلغ من ولع الأمين بغلمان القصر أن أمه زبيدة — وقد أرادت صرفه عنهم — ألبست جوارى القصر زى الغلمان ليشغل بهن !

(٤) الحيوان ٤ : ٤٤٨

شاعريته :

لست أدرى لماذا أحب أن أنظر إلى زهديات أبى نواس ، كلما عَنَّ لى أن أقوّم شاعريته . وأنا أومن بأن جزءاً من هذه الزهديات ليس للشاعر ، فبعض هذا الجزء لصالح بن عبد القدوس وبعضه لأبى العتاهية ، وبعض ثالث لغير هذين من الذين واكبوا حركة الزهد التى عرفها القرن الثانى الهجرى .

أجل ، أنا أومن بذلك ، ولكنى أومن أيضًا أن مجموع ما يُتَّفَقُ عليه للشاعر من شعر الزهد يتيح لنا أن نتعرف شاعراً عملاقًا يقدر على فن الشعر كما لا يقدر عليه أحد . فهو بديًا عاش حياته كما أراد أن يعيش بلا وازع من تقليد أو خلق ، وهو لم يبخل على نفسه بأى شىء تحتاج إليه . وكان من الممكن أن ينظر إلى تفوقه فى هذا المضمار بطبعية وبلا نقاش ، ولكن صدوره عن الجانب المناقض لذلك وتقريره فى شعر جميل ومزاحمته لشعراء الزهد . . كل أولئك يضطر الناقد إلى أن يؤكد أن أبا نواس كان حالة خاصة ، حالة فريدة ربما لم تتح للعربية يومًا ما .

وإذا كنت ناقشت صدوره فى الشعر عن شذوذ جنسى مصطنع — وأقول إنه لم يقصر فيه ، بل بلغ حدّ الإعجاز — فإننى يجب أن أقرن به هذه النزعة الزاهدة ومعها طردياته التى كانت فى رأيى محاولات لغوية مدهشة !

وهنا تبدو شاعرية أبى نواس تجمع بين نقيضين تمامًا كبشار ، وإن يكن أبو نواس أظهر وأكثر ثباتاً !

من أجل هذا أتى بعد موت أبى نواس أقوام شغلوا بشعره ، من هؤلاء حمزة الأصفهانى وأبو بكر الصولى وتوزون الطبرىّ ، وكلهم من علماء القرن الرابع . وقد سبق هؤلاء أبو سعيد السكرى الذى عكف على شرح ديوان الشاعر — كما وجد فى القرن الثالث — شرحا لغويًا ، وإن لم يتم هذا الشرح .

ومنهم من اهتم بأخباره كابن منظور صاحب لسان العرب ، وأبى هفّان

صديق الشاعر ، وابن عماد الثقفى المتوفى فى الربع الأول من القرن الرابع .

الأول كتب « أخبار أبى نواس » كان المزمع أن يطبع فى جزءين وإلى الآن لم يطبع إلا الجزء الأول فى القاهرة ، والثانى كتب أيضًا « أخبار أبى نواس » وطبع فى القاهرة سنة ١٩٥٣ ، والثالث جمع أخباره مع أخبار أبى العتاهية .

أقول من أجل هذا أتى بعد موت أبى نواس مثل هؤلاء وشغلوا بشعره . ولم يختلف الجميع فى جودة ما قال فى الجد والهزل . ولقد أشار حمزة الأصفهانى إلى ذلك بوضوح فى مقدمة الديوان ، وقرر أن قوله الشعر كان على غير طريقة من سبقه « لأن جُلّ أشعاره فى اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره فى ذكر الطرد ووصف الخمر ولغة النساء والغلمان . وأقل أشعاره مدائحه ، وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا فى زمانه وكانوا من بعده » .

وأما الجاحظ فقد عنى بجمع الأمثلة من شعره يسوقها فى كتبه ، ولما كان من الذين عاصروه بل صادقوه فإن رأيه يصبح ذا قيمة كبرى ، ولا سيما إذا تعرّض لغير ما شهر به من الإباحية والتهتك . ولقد اهتم بصفة خاصة بطردياته ، وسجل له عشر طرديات إلى جانب قصيدة فى وصف كلب الصيد مطلعها [1] :

ربّما أغـــدو معى كلبى طالبًا للصيد فى صحبى ،

ثم لم يلبث أن عاد يقول عنه « وأنا كتبت لك رجزه فى هذا الباب — الطرد — لأنه كان عالمًا راوية . وكان قد لعب بالكلاب زمانًا وعرف منها مالا تعرفه الأعراب ، وذلك موجود فى شعره . وصفات الكلاب مستقصاة فى أراجيزه ، هذا مع صدق الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة ، وإن تأملتَ شعره فضلته ، إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو ترى أنّ أهل البدو أبداً أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم فى شىء » [2] .

وأظن أن هذا يكفى لأن نعرف حقيقة شاعرية أبى نواس ، وأن نعرف أنّ

---

(١) الحيوان ٢ : ٢٣

(٢) السابق ٢ : ٢٧

هذه الشاعرية مستوية فى كل فنه ، بحيث إننا نرى أبا نواس الزاهد كأبى نواس الماجن وكأبى نواس صاحب الطرد !

دوره فى الشعوبية :

بمقياس حساسية العصر نرى أن أحداً لم يصوّر عصره كما صوره أبو نواس ؛ وأن أحداً لم يخدم الشعوبية كما خدمها هذا الشاعر . كان أبو نواس بما روى عنه وبما نقل من كلامه يعرب عن ولع شديد بالتهتك وعن ولع أشد بمهاجمة العرب . ولا أريد أن أتقصى هنا كلامه ، فما رويته عنه يكفى ، إلا أننى أجتزئ بأبيات سجلها له الجاحظ وابن قتيبة جميعًا .

فالجاحظ يقول إنه «كان يتعرض للقتل بجهده ، وقد كانوا يعجبون من قوله :

كيف لا يُدْنيك مِنْ أملٍ مَنْ رسولُ الله من نفره

فلما قال :

فاحْبِبْ قريشًا لحبِّ أحمدٍ ها واشكرْ لها الجزْل من مواهبها

جاء بشىء غطَّى على الأول»[1] . وواضح من المثلين أن الشاعر يناقض نفسه ، فمرة يضيف رسول الله إلى بَشَرٍ عادىّ ، ومرة يُضاف إليه هو ؛ والحقيقة أنا نفسر هذا التناقض بوضعه فى إطار شعوبية العصر . وقد رأيناه فى البصرة حاملاً على الدين حاملا على المجتمع حاملا على تقاليد الشعر الذى يأخذ هو بأسبابه .

كل هذا واضح ، ومن ثم يحسن أن نعود إلى ما قاله الجاحظ ، فسنجده يقول : « وأنكروا عليه قوله : لو أكثر التسبيح ما نجّاه ! فلما قال :

يا أحمدَ المرتجى فى كلِّ نائبةٍ قمْ سيِّدى نعْصِ جبار السموات

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٤

غطى هذا على الأول ، وهذا البيت مع كفره مقيت جداً . وكان يُكثِرُ فى هذا الباب »[١] .

وأما ابن قتيبة[٢] فيذكر البيت الأخير إلى جانب ذكره الذى ينم عن شك بالغ :

تُعَلَّلُ بالمُنَى إذْ أنت حيٌّ ... وبعد الموتِ من لبَنٍ وخَمْرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ ... حديثُ خرافةٍ يا أم عمرو

وقوله فى الأمين :

تَنازَعَ الأحمدانِ الشِّبْهَ فاشتبها ... خَلقاً وخُلقاً كما قُدَّ الشِّراكانِ
مِثلانِ لا فَرقَ فى المعقول بينهما ... معناهما واحدٌ والعِدَّةُ اثنانِ

ثم يسجل له بعد عودته من مصر عبارة قالها له الرشيد وهى : يا بنَ اللخْناء، أنت المستخف بعصى موسى نبىّ الله إذ تقول :

فإنْ يكُ باقى سِحْرِ فِرعوْنَ فيكمُ
فإنّ عصى موسى بكفٍّ خَصيبِ

ومن المؤكد أن هذا الكفر كان سبباً مباشراً لتحطيمه ، فإن الرشيد غضب عليه وأمر بقتله بعد أن أجّله ثلاثاً ، ولكن الأمين حماه فعاش إلى نهاية القرن الثانى وهو ابن اثنتين وخمسين سنة كما يقرر ابن قتيبة .

* * *

هذا فيما يتصل بالدين ، فإن تركناه إلى لهوه وجدناه يذكر عشْقَه فيقول ببساطة :

الحمد لله أنى ... على حداثة سِنى
فُقْتُ المحبين طراً ... ببعض ما شاع عنى

---

(١) الحيوان ٤ : ٤٥٦ وأحمد المرتجى هو أحمد بن أبى صالح الذى كان يلهج به أبونواس ومثل هذا الصبأ نجده فى شتى الكتب كالصناعتين ١١٣ ، ١١٤

(٢) الشعر والشعراء ٧٨٢

ويتمايجن فى وقاحة قائلاً :

وغزالٍ زان بالقـــا مة رِدْفًا بربريا
قـــد سقينـــاه على الور د شـــرابًا ذهبيـــا
قاده إبليس طوعًـــا بعـــد ما كان عصيـــا
فكشفنا عن بياض الر دف ثوبًا قصبيـــا
وركبناه بلا سر جٍ ركوبًا مـــرزويا

ويذكر الخمر فيقول :

حجٌّ مثلى زيارةُ الخمار واقتنائى العَقَارَ شربُ العُقار

ويلخص موقفه المجتمعى كله ، ويحدد رأيه فى الحياة ، فيقول :

أطيب اللذات ما كا ن جهـــاراً بافتضاح

كما يقول :

وإن قالوا حرامٌ قلْ حرام ولكنّ اللذاذةَ فى الحـــرام

ومن الإطالة التى لا طائل وراءها رَصْدُ نَحْوِ هذا فى فصل صغير عن شاعر كبير ؛ فلقد أجمعت الأثبات على أن الشاعر كان يتحدّى الرأى العام ، وكان يحرص على أن يتغنّى بالمحرم . ككل فارسى ، أو ككل مولى رأى أن يعود ماضيه ما كان هذا الماضى يهدم القيم التى أقامها الإسلام .

هذه النقطة بالذات تصلح بدءاً لفهم حملته على تقاليد الشعر العربى ، ولقد كنا رأيناه ينادى بترك مقدمة البكاء على الدمن ، ولنسمعْهُ هنا يقول على سبيل المثال :

راح الشقىُّ عـــلى الربوع يهيمُ
والرّاحُ فى راحى فرحتُ أهيمُ
بمزمـــزمين عـــدَوْا بســـدفة ليلةٍ
والليـــلُ ملتبِسُ الظلام بهيمُ

إلى جانب قوله :

دعِ الرَّسْمَ الذى دثَرا يقاسى الريحَ والمَطرا
وكنْ رجلاً أضاع العلـ ـم فى اللذات والخطرا
ألم تَرَ ما بنَى كِسْرَى وسابورٌ لمن غبَرا

لنرى أنه يختار من دون العرب أهلَ عشيرته المزمزمين — أى الفرس — وهو يختارهم سُمَّاراً ونداى شراب ، ثم لا يلبث أن يجد الفرصة مهيأة أمامه ليذكر مجد فارس القديم ، ثم ليحط من ماضى العرب على ما رأينا . ولا يكتفى بذلك ، لأنه يتحوّل إلى هؤلاء الندامى — وهم من غير العرب — فيصفهم ويكون وصفه لهم تمجيداً لسجايا فارسية لا يستمتع بها العرب ، فهو يقول :

نداماى طول الدَّهْر خُرْسٌ عن الخَنَا
وعُمْىٌ عن العَوْراء نُزْهٌ عن الكِبْر

ويقول :

نَفْسُ المُدامة أطيَبُ الأنفاسِ أهلاً بِمَنْ يحميه عن أنجاس
فإذا خَلَوْتَ بِشُرْبِها فى مجلسٍ فاكفُفْ لسانَك عن عيوب الناس
فى الكأس مَشْغَلَةٌ وفى لذاتها فاجعل حديثَك كلَّه فى الكاس
صَفْو التعاشُر فى مجانبة الأذَى وعلى اللبيب تَخَيُّرُ الجُلاّس

ويقول :

لا تَشِنْها بالّتى كرِهت فَهْىَ تأبى دعوةَ النَّسَبِ

ثم يقول :

نازعتُها فتيةً غُرًّا غطارفةً ليسوا إذا امتُحنوا يومًا بأنكاسِ
لا يَبْطَرون ولا يُخزون ناديهم كأنهم جُثث من غير أنفاسِ

وهكذا نجد عَبَثَ أبى نواس يعلن فى صراحة عن موقفه من العرب الخُلَّص ، كما يعلن أنه يلتزم هذا الموقف ما كان التزامه لا يضرّ به ، فإن فعل فهو مرة

أخرى ذلك الشاعر التقليدى الذى يتمسك بحرفية الموروث . المشكلة إذن أنّ الشاعر لم يكن يؤمن بجدوى دعوته ، ولكنه كان يؤمن بأنها مجرد إعلان عن شعوبيته !

* * *

وأما اللغة عنده فى مجموعها رصينة قوية ، وتعتبر بالنسبة إلى لغة غيره من شعراء العصر خالصة من اللحن اللغوى بصفة عامة ، وإن لم يبرئه العلماء من شىّ أخطاء[1]، غير أن هذا الجانب شىء ، واستعماله العامية وعبارات الفرس شىء آخر !

والحق أننا ندهش كيف يتسمح هذا الشاعر بمثل ذلك ، وهو يصدر عن عربية عالية فى طردياته !

ولكن مما يلفت النظر أن صدوره بلغة الشعب كان مقصوراً على شعر العبث ، فى حين صفّى شعره الجاد من شوائب العامية . والأمر بذلك يكشف عن موقف آخر من مواقف شعوبيته ، هذا الموقف القائم على التقيّة غالباً وعلى التوارى حتى تحين الفرص !

كل ذلك عرفناه فى صفحات مختلفة من هذا الكتاب ، فإن عَدلنا عنه إلى مَثَلَيْن من شعره فى اللهو وشعره فى الجد رأينا اليسر — وإن لم يكن ثمة لحن وعبارات سوقية — فى الشعر الأول ، ورأينا التعقيد فى الشعر الثانى ، فمن قوله الذى لم يعجب أحداً من القدماء :

قد غَنِينا عن الشتاءْ وعن اللُّبْس للفِـــراءْ
وعن الحَشْوِ والعمـــا مةِ والكِنِّ والصِّـــلاءْ
وعن الفـــرشِ والغطاءْ فى بيـــوتٍ بلا كِواءْ

---

(١) فى الشعر والشعراء ٧٩٤ ، ٧٩٥ أمثلة لما وقع فيه من لحن ، منها إعراب الملحق بجمع المذكر السالم بحركات على نونه ، ومنها رفع المستثنى من كلام تام موجب ، ثم منها قوله :

فليت ما أنت واط من الثرى لى رمسا

تاركاً فيه الهمز فى « واطىء » وناصباً « رمسا » بلا وجه ، إلا إذا كان على التمييز أو التفسير !

قـــدم الصيفُ بالولا يةِ قُدَّامه اللواءْ
بالمنـــاديل والغـــلا لةِ والنَّعْلِ والرداءْ
بالطنابـــير والطبـــو لِ وبالرقص والغنـــاءْ

وأشهد أن هذا الشعر وقد خلص من كل تعقيد لا ينقصه حياة ولا يحتاج إلى من يكشف عن يسره [١] ، وليس ثمة ما يجعلنا نزورّ عنه ولا نستطيبه فهو من النوع السهل الممتنع .

وأما المثل المعارض فإحدى الطرديات التى عُنى بجمعها الجاحظُ فى حيوانه ، وهى الطردية الثالثة التى يقول فيها :

عَدَّدتُ كلبًا للطِّراد سَلْطا مقلَّداً قلائـداً ومَقْطا [٢]
فهو الجميـــلُ والحسيب رهطا ترى له شِدْقَيْن خُطَّا خَطَّا [٣]
يمرى إذا كان الجراء عَبْطا براثِنًا سُحْمَ الأثافى مُلْطا [٤]
ينشِط أذنَيه بِهِنَّ نَشْطا تخال ما دَمِينَ منها شرطا [٥]
ما إن يقَعْنَ الأرضَ إلا فَرْطا كأنما يُعْجِلن شيئًا لقْطا [٦]
أعجلَ من قولِ قطاة قَطَّا فاجتاح خِزّانَ الصحارى الرُّقطا [٧]
يلقَين منـــه حكما مشْتَطا للعظم حَطْمًا والأديم عطا [٨]

---

(١) ربما واجه القارئ بعض صعوبة فى فهم كلمات لم يعد مدلولها قريباً منا ولكنه كان قريباً للعصر ، من ذلك الكن والصلاء والكواء ؛ أما الأولى فمعناها الستر ، والثانية معناها الدفء والثالثة جمع كوة .

(٢) عددت : جعلته عدة ، الطراد : الصيد ، السلط : الشديد والطويل ، مقطا : حبلا

(٣) رهطا : جماعة وعشيرة ، شدقين : زاويتى الفم من باطن الخدين

(٤) يمرى : يظهر ، الجراء : الجرى ، عبطاً : أن يجرى الرجل دابته حتى تعرق ، الأثافى : مانتأ فى كف الكلب ، ملطا : خالية من الشعر

(٥) مادمين : ما ظهر منه الدم

(٦) إلا فرطا : إلا نادراً ، لأنه لا يمس الأرض برجليه لسرعته

(٧) قطا : حكاية صوت القطاة ، وكان المفروض أن يقوله بالتخفيف ، اجتاح : استأصل ، الرقطا : جمع أرقط وهو الأسود تخالطه نقط بيض

(٨) مشتطا : ظالما جائرا ، الأديم : الجلد ، عطا : شقا

وأشهد مرة أخرى أن هذا الشعر لا يمكن أن نفتح له صدورنا بسهولة ، إذ لا بدّ أولاً من اللجوء إلى معاجم اللغة ، ثم لا بدّ بعد ذلك من فهم ما غمض من ألفاظه فى إطاره البدوى وفى استعماله التقليدى ؛ فقد يختلف المدلول المقصود عن مدلول القاموس . والأمر على أية حال أوضح من أن نكشف عنه ؛ فأبو نواس شاعر فحل حقًّا ، يملك اللغة ويعرف أساليبها ، ولكنه بدافع من التسهيل وإرضاء لحاجته هو إلى تصوير تجاربه تصويراً طبيعيًّا ، كان يجنح إلى شعوبيته وكان يتسمح أحيانًا بالخطأ .

* * *

وبعد . . فإننى مهما أقل فى أبى نواس فستظل دراستى له قاصرة لأننى أؤمن بأن الرجل لا يحتاج إلى كتاب واحدٍ مستقل ، بل يحتاج إلى كتب . وما أبو نواس أىّ شىءٍ إذا لم نناقش غلاملياته مناقشة موضوعية فى إطارها الاجتماعى المعروف ، وما هو بشىء أيضًا إذا لم يتصدّ الدارسون لحمرياته فى الحيزين التاريخى والاجتماعى المناسبين ، إذ مثل هذا وذاك يحتاج إلى الجهد الصابر والعناء الرشيد .

ومع ذلك فمن السهل أن أزعم أن أبا نواس جدّد فى مضمون الشعر أكثر مما جدّد فى أساليبه ، فأشبه بذلك بشاراً !

جدّد فى المضمون من حيث إنه أغرق فى الطَّرْد والخمر والغزل المنحرف ، وداخل هذه الدائرة قدّم كثيراً من الصور العصرية الرائعة بعيداً عن دائرة القدامى .

وجدّد فى الأساليب — مع ذلك — فقدم أوزانًا مستحدثة ، وإن لم ينجح فى تحطيم بنية القصيدة نفسها .

وفى هذا كلّه بَعَثَ حياة أمتين بكل ما عندهما من تناقض ، باعتبار أنه كان ابنَ البصرة المتقلبةِ فى شتى الأهواء المتنازعِ فيها القديم والجديد على

حدّ سواء ، ثم باعتبار أنه حمل إلى خارج البصرة عقليتها وأهداف مواليها .

وإذا كان أبو نواس قد أدّى شيئاً آخر للشعر العربى غير ما رأينا ، فهو إمكاناته لأن يعبر عن أدق حالات التمدين بعد أن كان شائعاً أنه لا يعبر إلا عن البادية !

ولقد يأتى من ينظر فى شعر الرجل — من خلال منظار العصر — فلا يرى ما يحب أن يراه ، فيتهمه أو ينكر عليه الكثير ، لكنه يحسّ أنه لم يكن يجعل قصائده مجرد صياغة كلامية لتجربة نفسية عرجاء أوشوهاء ، بل جعلها شاهداً عليه ، وتمكن — بالفعل — من أن يحرك مجتمعه من أجل شىء !

وليكن هذا الشىء ماشاء هو أن يكون ، لكننا — بالبصيرة النافذة العادلة — نحسّ أننا مشدودون إليه ، مستغرقون فيه ، مسيرون إلى أن نسلم بأن التجربة عنده كانت تجربة حياة تجعل الشعر موضوعية جذّابة ، وليس تشدقا جاهليا ولا تهويما صوفيا ولا شيئا بين هذا وذاك . ثم لا يقتصر أمره على أن يكون دلالات معنى وإيحاءات تعبير ، بل يتعداه إلى أن يكون تجسيم مادة وتشكيل صور .

وهذه هى غاية كل شعر وقد حققها أبو نواس ، وهذا حسبه !

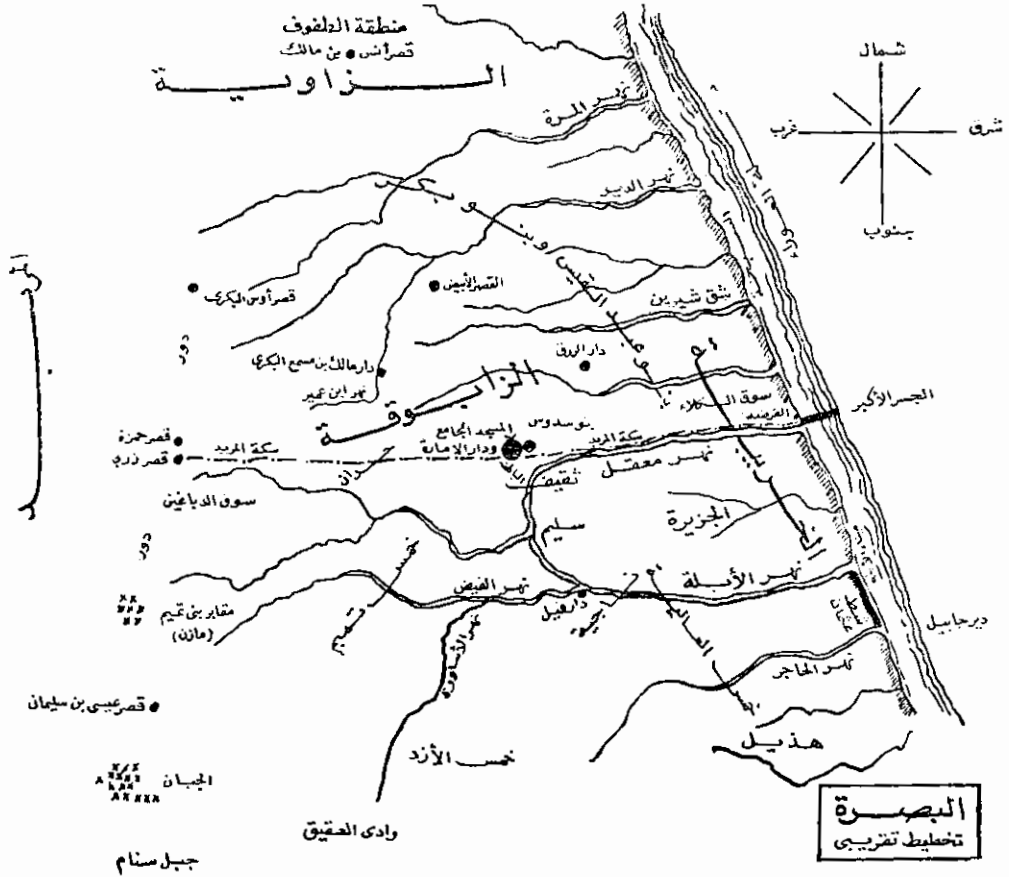
منطقة الدلفوف
قصر أنس بن مالك
الزاوية
شمال
شرق
غرب
جنوب
نهر الدير
القصر الأبيض
قصر أوس البكري
دار مالك بن مسمع البكري
نهر ابن عمير
الزابوقة
دار الريق
شق شيرين
الجسر الأكبر
سوق السلاء
المربعة
قصر حمزة
قصر زرب
سكة المربد
المسجد الجامع
ودار الإمارة
بنو سدوس
سكة الريد
نهر معقل
ثقيف
سوق الدباغين
سليم
الجزيرة
نهر الأبلة
نهر الفيض
دار قيل
مقابر بني تميم
(مازن)
قصر عيسى بن سليمان
الجبان
خس الأزد
وادي العقيق
جبل سنام
نهر الحاجر
هذيل
ديرجابيل
البصرة
تخطيط تقريبي